الحيلة في لبنان

على ضوء امثاله الشعبية

بقلم لحد خاطر

مقدمة

لكل امة من امم العصور امثال شعبية دارجة على السن العامة من افرادها ، هي ترجمان حالها ، وعنوان تفكيرها ، وصورة حيّة لآرائها في تصريف الامور وشؤون المعيشة .

ولم يشذ لبنان عن هذه القاعدة فان لعامته امثالاً من هـذا النوع تضمنت الكثير من الحكمة والعبرة في مشاكل الحياة اللبنانية واطوارها ومطالبها ، وما تقوم عليه من اركان ومبادئ ، وتهدف اليه من غايات ومرامٍ .

والمثل العامي اوفى تمثيلاً لحالة الامة من المثل الفصيح ، لان هذا لا يعرفه الا الادباء والمثقفون ، بينما الاول يتداوله الشعب برمته ، من مختلف الطبقات . وعلى ذلك يمكن اعتباره اصح صورة لحالة المتمثلين به وخير ترجمان لنفسيتهم ونوع تفكيرهم ووجهة نظرهم في ما يطرأ عليهم من الحوادث في مراحل العمر .

* * *

اما الامثال الدارجة على السن اللبنانيين فاكثر من ان تعدّ ويمكن حسبانها من متروكات الاجداد الادبية القيمة .

اما اصولها الاولية فتتنوعة المآخذ والمصادر ، على ان جُلّها لبناني بحت ، لا سيما ما دار منها على شؤون خاصة بلبنان ، ولا تُرى في غيره . نخص منها بالذكر ما كان ذا علاقة بالاوضاع الجغرافية المحلية من مثل قولهم : « شو هم صيدا من هدير البحر — كرمال عين تكرم كل مرجيون — يا طالب العافية من البوشرية » .

ولا ريبة ان في امثالنا طائفة تشاركنا فيها الاقطار العربية المجاورة ولا سيما ما كان منها عربي الاصل ، على ان ترديد هذه الامثال عهداً طويلاً في لبنان وباللهجة المعروف بها اهلوه قد اكسبها من حيث المعنى والمبنى طابعاً لبنانياً خاصاً يميزها عن امثالها في تلك الاقطار ، ويجعلها خليقة حقاً باسم « امثال لبنانية »

* * *

وها انا اقدم منها على سبيل المثال طائفة مما يدور حول الحيلة ومتعلقاتها . عسى ان تبدو منها صورة صادقة صحيحة لهذه الناحية الاجتماعية في لبناننا العزيز :

العيلة اللبنانية

العيلة من وجبت على المرء اعالته من اهل بيته ، وهي تتألف من الاولاد زهورها الفواحة ومن الزوجين او الاب والام ركناها الركينان ، يتبع هؤلاء احياناً الجدان والجدتان والاعمام والعمات والاخوال والخالات .

اللبنانيون يحبون النسل ابناء الذكر

والعيلة محترمة الجانب في لبنان رباطها الاولاد من صبيان وبنات والذي لا يعقب يعيش الحياة منغصاً وللتهوين عليه يقولون له : « بلاهم ولا بلاهم ! — وجودهم هم وبلاهم هم »

ولكنه قلما يقتنع ويقعد عن استشارة الاطباء والقوابل (الدايات) والعواجز طمعاً بأن يبقى من يقيم له ذكراً من بعده ويرث عنه ما يكون عنده من مال وعقار . اما تقول امثالهم ؟ : « من خلّف ما مات — الولاد صورة الوالدين » : والرزق لا يسمح به بعد العين الا للاولاد او الاحفاد من الذكور (المصب) . وقد قالوا في ذلك : « بجبك يا سواري مثل زندي . لا — ابن ابنك لك ابن بنتك لا » .

ابتهاجهم الصبيان على البنات

ويؤثرون في مواليدهم الذكور على البنات ويقولون عن الصبيان : « ما احلا بشارتهم ولو ماتوا بساعتهم » . اما البنت فالعتبة تحزن عند ولادتها اربعين يوماً . ويقولون بهذا المعنى : « البنات هنيهم للممات — البنت ان خلصت من الف عار بتجيب العدو للدار — بنتي في طبريا وهما واصل ليّا — بتجي البنت وبيجي منها معها » .

ولعل السبب في ذلك انها متى تزوجت تصير لرجلها تحمل اسمه واسم عيلته وتترك اسم والديها وتنقل ميراثها الى عيلة اخرى قد تكون غير ذات كفاية بعيلة ابيها ، لذلك قالوا : « من كانت البنت عاقبته لا يأمن يكون الكلب صهره » .

ويتفق ان يحصل بعض آباء البنات على اصهار من ذوي المكانة فيكونون

لهم ذخراً ومستنداً. وفي مثل هزلاء قالوا :« يا صهري يا سندة ضهري».

وبكل حال فان ولادة البنات في لبنان قلما تقابل بالارتياح وقد درجت العادة ان يهوّن على ام البنت باسماعها العبارات الملطّفة من مثل قولهم : « اللي بتجيب البنت بتجيب الصبي ــ الله يخلّيلها بيّها — البنت خلقة الله والصبي خلقة الله ! »

وان كانت البنت هي المولود الاول بعد الزواج قالوا للام من باب التعزية : « نيالك جتك بنت تخدمك»، وربما اوردوا لها المثل القائل :« من اسعدها زمانها جابت بناتها قبل صبيانها » لانهن بزعمهم يكبرن اولاً ويساعدن الام في القيام بمهام العيلة .

الطفولة

العيلة اللبنانية تبذل عناية كبرى في رعاية اطفالها، فالام تشبع ابنها من حليبها اعتقاداً ان « الشبعان من حليب امه » يشبّ صلب العود قوي الشكيمة وتفطمه للحال لدى تأكدها من حمل جديد لاعتقادها ان «حليب الفيل (حليب المرأة الحامل) يهدّ الحيل » ومتى ظهرت اسنانه تصنع له«السنينية»وهي حفلة تدعو اليها الاهل والاصدقاء. وتقدم فيها النقل والحلوى،وذلك لان طفلها يكون قد اجتاز خطراً كبيراً يرافق غالباً طور التسنين . ومن امثالها في ذلك :« لو عرفت امي بظهور سناني كانت هيّتلي كفاني » .

وتظل الام تراقب طفلها بلهفة حتى لا تلمّ به « المطرودة » (العين) و«اللي ما بتتسمّى » (القرينة) وربما يترعرع ويبلغ سن الدراسة فترسله للحال في القرية الى مدرسة تحت السنديانة ليتعلم فيها « فكّ الاسم » و « تعليقه » راجية من الاستاذ ان يقسو ما اراد بحيث يكون « الجلد له والعظم لها » اذ لا يهمها الا ان تراه من الناجحين في التحصيل ولا يضيع الوقت سدى فيقال له : «يا مرجوحة الثيتي مثل ما رحتي مثل ما جيتي » . ومن فراسة اللبنانيين توقعهم نجاحاً في العلم لكل ولد كبير الراس بدليل قولهم :« كبير الراس قرّا ».

التربية

ولتربية الاولاد شأن كبير في الاسرة يتعاون فيه كل اعضائها ، ذلك لانهم يقولون : « الطير المرّبى غالي — اولادكم ربوهم بتلاقوهم — اللي ما بيربي صغير ما بيلاقي كبير ».

وليست التربية عندهم من الامور السهلة التحصيل : « تربية الصبيان مثل قرقشة الصوّان — الولاد ما بيربوا ليربّوا على القلب دملة — ما بتعرف قيمة المرّبي حتى تربي — ما بيربى جسد تا يفنى اسد » .

ومنهم من يؤثر في تربية اولاده الضرب والقسوة فيقول : « ان حبيت ولدك حيّله القضبان حزّم حزّم — الضرب للولد مثل الزبل للبستان ».

على ان الذي يضرب ولده لا يرضى ان يصوّبه الناس على عمله ويفضل ان يقال له : لقد غاليت في القسوة والولد لا يستحق كل ما انزلته فيه من قصاص ولعل ذلك مارمى اليه المثل القائل : « بضرب ابني بالسكين وبكره مين يقولي آمين ».

وفي الناس من ينكر طريقة التربية بالضرب ويؤثر عليها التعليم الرصين والتوعد بالعقاب الاليم لدى المخالفة وهؤلاء يقولون : « عزّ عصا العزّ ولا تضرب بها » لان العصا في اعتقادهم لا تفيد الولد الجانح الشعور بل تدفعه الى القحة في ارتكاب المعاصي ويقولون في هذا المعنى : « اللي ما بتقطع فيه الكلمة ما بتقطع فيه ضربة السيف — شو بتعمل العلقة مع اللي عينه بلقا — اللي ما يكون لنفسه واعظ كلّت عنه جميع المواعظ — الوقح ضربه بخشب البيت بيقول دبس وزيت — القليل الشتمة بزوق عليه بيقول الدني عمال تشتي »

وهناك من يشير بارشاد الولد بالحسنى والتؤدة وافساح مجال الحرية امامه ليطبّق ما طُلب منه عن اقتناع وايثار دون ما ضغط ولا ارهاق : « حطّ ابنك على الحيطان ، وقلّه هيدي طرايق الشيطان ».

وقد يعامل الوالد ولده بالقسوة طوال مدة حداثته ، فاذا ما كبر وشبّ ورأى الافضل ارشادَه بالرقة والايناس : « متى طلعت دقن ابنك احلق دقنك —

ابنك وهو صغير ربّيه ومتى كبر خاويه » . ومنهم من يترك ابناءه لمدرسة الدهر :« ابنك لا تعلمه الدهر بيعلّمه ».

آراء في عهد الطفولة

وقد خصّت الامثال اللبنانية عهد الطفولة بطائفة كبيرة منها ، أبدت فيها الآراء المختلفة الحكيمة،منها قولهم في معزة الولد على قلب والديه : « الولد شريك الروح ». واعز منه الحفدة :« ما اعز من الولد الا ولد الولد ».

وقد لا يبادل الولد والديه محبتهما : « قلبي على ولدي وقلب ولدي على حجر » ومنهم من يقول :« من يوم ما شفتكم يا اولادي ما عاد هني لي زادي ». وكثيراً ما تؤدي تربية الاولاد والمهام العيلية الى افقاد الام صحتها وابتلائها بسقم جسمها : « قالوا بنتي كويسة وشعرها حرير ، قلنا اصبروا عليها حتى تخلّف وتربّي وتعانق السرير » .

وقد يكون في الصغار من لهم عقل الكبار وحسن فطنتهم :« من حي ولد خير من شيخ — من حي تلميذ سبق معلمه — الديك الفصيح من البيضه بيصيح». على ان الولد مهما كبر عقله تظل نزعة الطفولة مسيطرة على حركاته ونزعاته:« الولد ولد ولو حكم بلد—الصبي صبي ولو كان ابن النبي . يا ذلّ بلد حاكمها ولد ». وللاولاد من الطيش ما لا يمكن من الحكم في منازعاتهم بصورة منطقية لانهم سرعان ما ينقلبون عن مطالبهم دون ما سبب ، لذلك قالوا:«قاضي الولاد شنق حاله»واذا كان الولد شريراً سبّوا اهله قبل ان يسبوه لان الاهل هم المسؤولون الاولون عنه :« الولد المشوم بيسبّب لاهله المسبّة ».

وينصح احد الامثال بالا يرافق الولد في الطريق لانه « : ان وقعت حمارة رفيقه ضحك عليه ، وان وقعت حمارته هو بكى عليه » وهكذا يكون مرافق الولد خاسراً في الحالين .

كذلك تنصح الامثال اللبنانية باغفال ما يقوله الاولاد لان : « كل من يحطّ عقله بعقل الولاد يتعب » و « الولد الذي ليس من صلبك لا تهتم بتربيته » لان « اللي بيربي غير ولده ، مثل اللي بيعمّر في غير ملكه » — وقد

قيل ايضاً :« كل شيء اذا ربيته نفعك الا ابن آدم قلعك» — و «الولد الذي ما هو من ضهرك كل ما جنّ فرّحلُه ».

والعيلة الكثيرة الاولاد هي عند اللبنانيين عيلة مباركة من الله :« البنون الكثر ، اولهم فقر ، وآخرهم يسر ، وطولة عمر» .

البنت والعلم

اما البنت فقد كانوا في القديم لا يهتمون لتعليمها لانها لم توجد كالصبي «لتقعد في الديوان» واهم ما كانوا يطلبون منها «خدمة زوجها وتربية اولادها» اما الآن فالبنات يماشين الصبيان في تحصيل انواع العلوم على قدم المساواة . والامهات اللبنانيات يخصصن البنات بجانب كبير من عطفهن :« الصنكوته شافت بنتها على الحيط قالت لها يا عقد لولو ومعلّق بخيط »

واذا كانت البنت مزدانة بالعلم والتهذيب فضّلها كثيرون على الصبيان الطائشين وما قالوه بهذا المعنى :« البنت الكسيحه ، ولا الصبي الفضيحة — من حي بنت بتسوى الف صبي — كم من صبيان خربوا البيت وبنات عمروه ».

الخطبة

ومتى كبر الفتيان والفتيات كان في مقدمة ما يفكر اهلهم في تيسيره لهم الخطبة والزواج سنة الله في خلقه ، وللبنانيين في هذين الامرين امثال كلها حكمة وعبرة . فما قالوه في ظهور بعض الخطاب على حين غرّة ، كما يحدث غالباً :« الخطاب ورا الابواب» ولا عجب ان يعمى امثال هؤلاء الخطاب المستعجلين عن نقائص المخطوبات :« لمّا يوقع النصيب من السما يوقع الخطيب بالعمى».

ومن الآباء من لا يرضيه اقبال الخطّاب على طلب يد فتاته لانه ممن يصدّقون قول القائل :« البنت اللي بيكتروا خطابها بتبور » .

وقد تؤدي الخطبة الى اقرار عدم الموافقة في الزواج فتحلّ عروتها ويأتي آخر فيتزوج الفتاة وفي ذلك يقولون :« واحد خطب والثاني تزوّج » ويحاكيه قولهم : « العروس في الاكليل ، ما بينعرف لمين بتصير ».

وللنصيب في الخطبة كما في الزواج اكبر اثر :« كل شيء بتسيب ما عدا الزواج نصيب — النصيب غلّاب » .

ومنهم من ينكرون غلبة النصيب لما فيها من قيد لحرية الاختيار وهم يقولون :« قالوا الزواج نصيب لكن تلتينه تبيب » . واكثرهم يحاذرون التدخل في عقود الزواج تفادياً للمسؤولية في قابل الحين :« امش في جنازه ولا تمش في جازه ».

الشخامة الاصل والفصل

والشاب اللبناني في زواجه يسأل اولاً عن اصل العروس وما اذا كان اهلها من « مزاويجه » اي من بيت هو كفوء لبيته . وهذه القاعدة قلت الآن مراعاتها ومن امثالهم في اهمية الاصل : « خد الاصيله ، ولو على الحصيره — دور الدوره ولو دارت وخذ الاصيله ولو بارت — الاصل عون». ويقولون بهذا المعنى :« فلان بياكل القشور وبيرجع للجذور ، أو بياكل الفول وبيردّ للاصول — اسأل عن الاصول قبل الوصول — على القرمية تنبت الرخية — من كان ابوه بصل وامه توم من اين تجيه الريحة الطيبة — زرعت حنظل بارض عنبر تعبت جهدي وسقيت سكّر عند فصله رجع لاصله ».

ومنهم من يسأل عن الفعل فقط : « اصلك فعلك يا سفرجل » وهذا من نوع قول الشاعر :

لا تقل اصلي وفصلي ابداً انما اصل الفتى ما قد حصل

اسأل عن الأم

وطالب يد الفتاة يسأل قبل كل شيء عن سلوك امها واخلاقها وسمعتها لاعتقاد اللبنانيين ان البنت تمشي في بيتها مع زوجها كما مشت امها من قبلها مع رجلها ومن امثالهم في هذا المعنى : « سئال عن الام قبل تلمّ » . ومنهم من يقول : « شوف الام ولمّ — لا تاخد العورا ولا بنت بنتها تعديك على طول الزمان عوار » . واشهر امثالهم بهذا الخصوص :« طبّ الجرّه على فما تطلع البنت لامها ».

والام اللبنانية مثال الرقة والحنان. ويقولون بهذا المعنى:« الدنيا امّ» و«الأم هي الدنيا »فكأنهم يحصرون بالام مباهج الدنيا وزخارفها. ويقولون اذا ولّى الصيف:« لو كان له ام كانت بتبكي عليه » . لان قلبها مستودع

الشعور الفياض. اما قولهم : « وهل في الامر يا امي ارحميني » فيكاد يرمي الى حصر الرحمة بالام دون سواها .

ومنهم من ينكر انتقال الاخلاق بالسلالة ويقول المثل المشهور : « الورده بتخلف قرده ، والقرده بتخلف ورده - البطن بستان بيجيب شكال ولوان » ويرى آخرون ان الفتاة لا يمكن الحكم في سلوكها الى ان تتزوج فيظهر معدنها ، ويقولون في ذلك : « البنت مقله مغطّايه - البنت صوفه ملفونه ».

ومنهم من يلاحظ اخلاق العمة والخالة والاخوات ويقول هؤلاء : « خدوا البنات من صدور العمّات - الولد لو بار بيطلع تلثينه خال - البنت الكبيرة بتزوّج خيّاتها » هذا اذا تزوجت قبلهن واحسنت سلوكها مع زوجها .

وهناك من يرى ان الزوج هو الذي بتصرفه يجعل من زوجته اماً ملاكاً واماً شيطاناً : فهي شيطان اذا افسدتها واذا هذبتها فهي ملاك .

ومن امثال القائلين بهذا الرأي : « الفرس من ورا الفارس - خدّ عن الطريق وحرّر ».

المال

ويراعون المساواة في درجة الغنى بين طالبي الزواج كما في غير ذلك من الشؤون كالعمر والجاه والثقافة والاخلاق وذلك يعرف مما يروونه عن شاب قيل له لماذا لا تتزوج؟ فاجاب : « بنت الحصيره (اي الفقيره) ما مزيدها وبنت السجّاده (اي الغنية) ما بتريدنا » وقد درجت العادة في لبنان ان يجري تبادل المصاهرات بين اسر معلومة متكافئة في مكانتها وكرم اصلها : « يا مسلنا تعال لعندنا - قدره ولاقت غطاها - الدار مكتوب على بوابها ما بتجيب الا مثل صحابها - على شكله شكشك له - كما حنا كما حنين والحسن اخو الحسين » .

واذا لم تكن مساواة بين الخطيبين فينذر ان يتمّ بينهما زواج : « اللي ما بيقدر على الفرس وعليقها يحيد من طريقها ».

والغالب ان لا يسأل الشاب اللبناني عن مهر العروس وبائنتها بمقدار ما

يسأل عن اخلاقها وآدابها وما يقوله الناس عنها لان : « الصيت الحسن خير من المال المجموع – والمليح مليح الخصايل ».

ويقولون بهذا المعنى : «يا آخذ القرد على ماله راح المال وبقي القرد على حاله»

ويوصي الفلاحون اولادهم : « لا تاخذوا الّا بنت القلّه وارض الخاله – خذوا فقرا يغنيكم الله ».

اما البنات فيهمهن جداً وقبل كل شيء آخر ان يلاقين نصيباً لان في بقائهن العياة بغير زواج شيئاً من المرارة والعار لذلك قالت الامثال : «زوج من عود خير من القعود – الرجّال لو كان فحمه وجوده في البيت رحمه » ويقرب من هذا قول فتاة لامها تعاتبها : « على الحطب كبيره وعلى الزواج صغيره ؟».

والعادة ان يراعى سياق العمر في التزويج فاذا تزوّجت الكبرى قالت اختها الصغرى : « تزوّجت اختي من كبر بختي ».

ومنهن من تؤثر في الرجل جماله : « الشاب العيّوق ولا المال اللي في الصندوق ». وغيرها تؤثر صحته وقوة جسمه : « خدي رجّال الشغّال ولا تاخدي صندوق المال ».

امّا الفقيرات فيؤثرن الشاب الفني لقسوة ما يتحملنه من اذى الفقر : « لا يغرّك الشاب وتزويقه بيسي وبيصبح على ريقه. زوّج الفقيره للفقير بيكتروا الشحّادين – اللي بيتزوج بالدّين بيبيع ولاده بالفايده».

واذا رفضوا تزويج فتاة ممن لا تروقهم حالته غالوا في طلب مهرها : « ما بدك تزوّج بنتك غلّي نقدها » ويؤمن اصحابهم على عملهم قائلين : «خبّي العسل بجراره لتجي اسعاره »

ويحاذرون تزويج بناتهم ممن يتغيّب كثيراً عن منزله : « عمرك ما تاخدي مكاري ليله عندك ليله بالبراري ».

ويؤثرون تزويج اولادهم ببنات من بلدتهم لمعرفتهم ماضيهن : « اللي بيتزوج من بلده مثل البيشرب من الكبايه . واللي بيتزوج من الغربه مثل البيشرب من بريق الفخار – تزوجنا وجبناها غريبه زوان بلادنا ولا القمح الصليبي – بنت بلدك بتعساك على المليح والوحيش».

كذلك يؤثرون ان يكون الزوج من طائفة البنت ومذهبها لان الوحدة في المعتقد تساعد على الانسجام والتفاهم : «من أخذ من غير ملته وقع في عله غير علته».

ومن الشبان من يجابههم الفشل كلما صمموا على الزواج لاسباب قد يكونون هم منشأها : «كلما قلت بدي اتزوج بيعرج حماري وسيقانه بتتعوّج»

العرس

ولا بدّ قبل العرس من التفاوض لتنظيم الحفلات وتوجيه الدعوات والعادة ان يجري ذلك مع امي العريس والعروس ، وقد ضرب المثل ببراعة من يقوم بنقل هذه المفاوضات بينهما لما تستوجبه من دهاء وزلاقة لسان: فاذا قيل: «فلان بيدخل مع ام العروس وبيطلع مع ام العريس» فهم انه مراوغ مراء يلبس لكل حالة لبوسها .

ويقال للتي تنهمك في عمل غير ذي فائدة : «فلانه فاضيه مشغوله مثل ام العروس» لان الاعمال المتعبة في العرس تتعاون عليها القريبات والصديقات ولا يبقى على ام العروس الا مهمة الاستقبال والاشراف.

ويقال لمن يطلب عاريةً من صاحبها حين حاجة هذا اليها : «ليلة عرسك عيرني قرصك» (القرص هو الطنطور كانت تلبسه العروس في حفلة الزفاف). ومثله «ليلة زفتك عيرني دفتك» (الدف آلة طرب تستخدم في حفلات الزفاف).

ومن عادة اللبنانيين في خروجهم بالعروسين الى المعابد لاجراء حفلة العقد ألّا يعودوا في الطريق نفسها تشاؤماً ويشيرون الى ذلك بالمثل القائل: «مثل العرّاسة بيروحوا على درب وبيرجعوا على درب»

اما النقوط وهو مبلغ من مال كان الاهل والاصدقاء يقدمونه للعروسين على سبيل المساعدة فقد جرت العادة ان يرقص به مقدّمهُ في «الحلقة» ثم يضعه على طبق أُعدّ لذلك وعليه انواع الشراب والنقل وفي ذلك قالوا : «واحد رقص والثاني حطّ النقوط» وهو قريب من قولهم : «ناس اكلوا الدجاج ناس وقعوا في السياج — واحد طبخهُ ما ذاقه والثاني كبّر مشداقه» .

سبحان ربي يعطي ذا ويحرم ذا هذا يصيدُ وهذا يأكل السمكه

ويقال لمن يشكرون قريباً او صديقاً : « مين بيجي مع البنت امها — مين بيشكر العروس امها وخالتها واهل حارتها ».

والعروس تسرّ بجهازها وبالافراح القائمة في عرسها وبمن يتطوّع لخدمتها من الصواحب والاهل ، فتتوهم ان الايام ستظل طوع يدها على هذا النحو فيقال لها عبرة وتذكيراً : « لا تفرحي بطيّ جهازك يا ما بدك تجلي قدور. لا تفرحي بكمك عرسك ياما مخبّالك ...»

بعد العرس

اذا كان العروسان على وفاق بعد العرس غبطهما الناس وقالوا عنهما: « قرين على فرد مخدّه » والعروس عندهم : «وشواشة المخدّة ما عليها متبدّي ».

ويقولون عن الزوجة التي تعرف كيف تداري زوجها : « اللي زوجها معها بتدير الفلك باصبعها»- وقالوا ايضاً: «اذا كان زوجي راضي شو دخل القاضي»

واذا كمل تفاهم الزوجين رضي احدهما بما يفعله الآخر ولو كان مما لا يوجب الرضى : « ايش ما طبخت الرعنا بياكل زوجها الاعمى » وان تبرّجت الزوجة وافق الزوج على ما تفعل ولو كان مما قد يعرضها لنقد الآخرين : «قالت يا رجّال بدّي اتحنى ، قال لها يا مرا انا بتسنى».

وان لم يكن تفاهم لم يكن وفاق : « قالت يا رجّال بدي بابوج قال لها يا مرا رجليك عوج » وقد تكون رجلاها مستقيمتين .

وقد يعنت الزوج زوجته في رفض ما تطلب فتعمد الى الدموع ترقق بها قلبه القاسي : « دموع المرا سلاحها — دموع الفواجر حواضر » . والمرأة هي العمدة في تدبير البيت وترتيبه والاقتصاد في المنفعة بحيث تضع الشيء في محله فلا تكون بخيلة كما لا تكون ايضاً مبذرة ولهم في ذلك امثال منها : « الرجّال جنّا والمرا بنّا — الرجّال جلّاب والمرا دولاب» .

على ان الزوجين اذا ما شجر بينهما خلاف اصبحت حياتهما جحيماً فيقول الزوج : «تزوجنا لنستر رزق الله على المزوبيّة» وتقول الزوجة : « لا من بيت ابونا ولا من اللي تزوجونا » . وتقول ام العروس : « يا بنتي زواج زوجتك ولكن حظ منين بدّي جبلك ».

وقد يشتد الخلاف بين الزوجين فتترك الزوجة البيت الزوجي وتعود مع من تكون رُزقت من البنين الى بيت ابيها شاكية باكية ، فاذا كانت هي المذنبة قالوا لها :« الطريق اللي جيت عليها ارجعي عليها » لان :« المرا ما لها غير زوجها — والمرا بلا رجّال قلعة بلا جبال » وان كان هو المذنب وتكرّرت اساءته اليها استقبلوها مع من معها قائلين : « البيت اللي ربّاك ما بينباك ». على انهم قد يتأففون ممن يرافقها من بنين لا يرون ما يوجب عليهم اعالتهم فيقولون:« زوّجت بنتي لارتاح من بلاها جات وجابت ولادها وراها ». ويقول آخرون:«زوّجت بنتي لاقعد في حماها جات وجابت جراها».

وقد يحل بالزوج نكبة فيضطر حموه الى اعالته مع زوجته ومن له من اخوة واخوات . وفي مثل هذه الحال يقول والد الزوجة :« زوجت بنتي لارتاح من همها جات وجابت زوجها وولادها وولاد عمها (اولاد حميها) » وربما اضطر الاب بعد جنوحه الى حياة الراحة ان يعود الى العمل ليقوم بالعبء الجديد الذي جاءت ابنته بعد زواجها تثقل به كاهله ، وعندئذ يقول : « زوجنا بنتنا لنستريح عادت حملتنا المنجل والشطيح » (الشطيح قفاز من جلد يُستعان به في الحصاد ، ولعلّ الكلمة من السريانية).

واذا احبّ شاب فتاة عاقلة في اسرة تحوم عليها الشبهات أخذ زوجته التي أحبها ورأى فيها من الاوصاف ما أوجب احترامه وقلب لاهلها ظهر المجن وهو يقول : «اخدت من الحزمه عود ، والباقي تاخده القرود ».

ومن النسوة من لا تبدي نشاطاً في عمل الّا اذا كان متعلقاً بالتجمل والزينة :« جتني الشطاره جتني يا زوجي ثُمّ مشطني». ومنهن الجاهلة التي تخرب بيت زوجها لتطعم اهلها الذين لا يلبثون ان ينكروا معروفها ، ومنهن العاقلة التي تعرف ان ليس لها ولبيتها الا ما تقتصده من القرش الابيض لليوم الاسود : «حبوني اهلي وانا غنيّة وحبني زوجي وانا قويّه».

والمرأة التي تطيع زوجها تسمن عظامه كما قال الكتاب وتملأ بالاغتباط قلبه :« تلاتة بتطول العمر: الدار الوسيعه ، والفرس الطليعه ، والمرا المطيعه».

والزواج الباكر يساعد على غزر النسل وقوته : « زوّج ابنك وهو ولد بيجيلك ولد — تزوج بجهلك وزّني ولادك عا مهلك ».

واذا كره الزوج زوجته اختلق لها الذنوب من تحت التراب ، كما أشير الى ذلك في مثل على لسان امرأة قالته لزوجها الذي كان يكرهها ويبالغ في إعناتها بطالبه :« حلو ومالح طبختلك — وبرا وجوا فرشتلك — لكن درب التبانه ما حسبتلك» درب التبانه عند العامة هي ما يسميه العرب «نهر المجرة» وهو منطقة في السماء قوامها نجوم كثيرة بينما تكون في اول الليل متجهة من الشرق الى الغرب اذ بها تظهر بعد ساعات متجهة من الجنوب الى الشمال . ويقولون ان الرجل غضب على زوجته لانها لم تجعل اتجاه فراشه موافقاً لاتجاه المجرة وهو اعنات لم يسمع بمثله .

والحياء اجمل حلية للمرأة وقد قالوا: « مرا بلا حيا طعام بلا ملح » .

والزوجة الشريرة لا تُعرف الّا بعد مرور مدة على زواجها فيبدو المخبأ من جوهر اخلاقها وقد قالوا : « المرا اول سنه عروس، وتاني سنه جاسوس ، وثالث سنه حيّه بسبع روس ».

وقالوا لمن يوالي او يعدّد زوجاته :« اول مره مرمرة ، ثاني مره سكره ، ثالث مره عنبره ، رابع مره تودّي للمقبره ».

واذا كثرت النساء في البيت الواحد تعطلت الاعمال فيه وقد قالوا في ذلك :« اذا كثروا الطباخين شوشط الطعام — بيت الوحده عمران ، وبيت التنتين خربان ، وبيت التلاتة ساكنه الشيطان ».

ويقرب من هذا قصة ذاك الذي تزوج من امرأتين حانا ومانا . وكان قد وخطه الشيب فجعلت الكبيرة منها تنتزع من لحيته الشعر الاسود ليبدو شائباً في مثل سنها ، والصغيرة تنتزع منها الشعر الابيض ليظل مثلها محتفظاً بمظهر الفتوة والشباب ، وعلى هذا النحو اصبح امعط الوجه اجرد الدقن فقال كلمته التي ذهبت مثلاً :« بين حانا ومانا ضاعت لحانا!».

وللمرضع نصيب في امثالنا اللبنانية فما تقوله فيها :« كل مع المرضع ولا تعاشيها » » لانها تأكل لاثنين بل لاربعه :«المرضعه بتاكل قدّ اربعه » ولانها تسرع في طريق منزلها للاهتمام برضيعها .

والفتاة المتزوجة مهما طال عليها المطال في بيت زوجها تظل تهفو الى العش

الذي درجت منه ، والى نوع المعيشة الذي اعتادته فيه. يُحكى في هذا المعنى ان امرأة اهلها فقراء تزوجت من احد كبار الاغنياء فكان همه ان يوفر لها جميع اسباب الترف والراحة ، على انها كانت ابداً تتلهف على عيشها في بيت ابيها وتقول لزوجها : « يا ما كان احلى نقل بيت بيي ونوم الكرخ! ».

فلم يسع الزجل الّا اخذها بنفسه الى بيت ابيها ليرى بعينه ما هو ذلك الذي كانت تتلهف عليه وتحنّ اليه ، واذا « بالنقل هو البلوط المشوي » و« بنوم الكرخ» هو النوم الى جانب الموقدة على جلد خروف دون ما غطاء، فتعجب الزوج من امرأة تعيش في بحبوحة النعم مثل زوجته تحنّ الى تلك التوافه وتشتاقها ناسياً ان ما يعتاده المرء في صغره ، وان يكن غير ذي بال ، يظل له اثره في نفسه طوال حياته .

الترمل والزواج مجدداً

تهتم المرأة اللبنانية كثيراً لموت زوجها وتتمنى لو سبقته الى القبر : « اللي ربنا متمم سعادتها بيطلع زوجها في جنازتها » وذلك لانه « ساتر عرضها » و« عمود بيتها » و « الحارس الامين لاولادها » — ومن اقوالهم في موت زوجة الفلّاح : « اذا ردت خراب بيت الفلّاح ادعي عليه تموت مرته او تموت بقرته » لان المرأة تساعده في جميع اعماله الزراعية فوق قيامها باعمالها المنزلية.

وشاعت اقوال حول موت الزوجة قد تصدق على بعضهم ، لكن اكثر اللبنانيين ينكرونها ولا يردّدونها الّا بالاستهجان منها قولهم : « موت المرا تجديد عرس — موت المرا مثل دقة الكوع » اي انه يؤلم موقتاً ويزول اثره سريعاً .

ومهما يكن من امر فالارمل لا يطول به الوقت حتى يُفكّر ثانيةً في الزواج بدليل قولهم : « اعزب دهر ولا ارمل شهر » لكن اذا كان له اولاد صعب عليه الحصول على « بديله » أي زوجة جديدة اذ يُقال لمن يطلبها : « الحقي عكا وبواد ولا تآخذي ارمل عنده ولاد » على ان المغالطات كثيرات و« كل مطلوب موجود» والبديله بعد وصولها الى بيت الزوج يدعوها الاولاد: « بخالة» وقد قيل فيها: « الخالة مرة الاب لا بتحب ولا بتنحب ». وهنا المشكلة الكبرى.

ولجحا (الرومي المشهور) الشائع ذكره في لبنان قصص عديدة مع خالته ترددها الالسن . منها: انه كان على جبانته وانحطاط همته كلما سنحت له فرصة ينهال عليها بالضرب حتى لقد قيل: «مثل جحا ما فيه الا لخالته – قلنا مات جحا واسترحنا منه رجع وقال صباح الخير يا خالتي — جحا ذبح بقرة خالته وكل من عنده سكين جايها» وهذا مثل آخر يدلّ على سقوط شأن الخالة عند اولاد الزوج وهو قولهم: «مثل اللي مضيّع جحشة خالته ان لاقاها بيغني وان ما لاقاها بيغني».

ومن الاولاد من لا يرون فائدة تذكر في محبة الخالة لهم فيقولون: «ان حبّتني خالتي عالتنور، وان بغضتني عالتنور» ويرى غيرهم ان التقرب اليها يحسن من حالهم في العيلة: «ان حبتني خالتي طعمتني نقول وان بغضتني نيمتني عالتنور».

امّا اولاد الارملة التي تترك اولادها وتتزوج فيكرهونها وزوجها معاً الا اذا كانوا عند زواجها لا يزالون صغاراً وفي حاجة قصوى الى عطفها وحنانها

امّا الزوج فيعامله اولاد الزوجة باللامبالاة: «اي من اخد أمي صار عمي» وان لزمتهم حاجة كرهوا ان يسألوه اياها لمعرفتهم انه لن يأتيهم بها: «حاجة لا تهمّك روحي عليها زوج امّك».

ويلاحظ ان رابطة الاخوة بين اخوين من ام واحدة وابوين مختلفين هي من الضعف بحيث لا تعدّ شيئاً مذكوراً ولذلك قالوا: «اخي من امي مثل الهوا في كمي».

والارملة ان كانت عاقراً عادت الى بيت ابيها وان كانت ذات اولاد فامّا ان تسهر على تربيتهم وخدمتهم قانعة من بهارج الحياة بهم، واما ان تتركهم وشأنهم لتنتقل الى عصمة زوج جديد. ومهما يكن من امر فزواج الارامل قلّما يكون سعيداً لما يرافقه عادةً من مرارة المقابلات والذكريات. والارملة – تقول الامثال اللبنانية – انها لا تحسن التربية: «الارملة ان ربّت تور ما فلح، وان ربّت كلب ما نبح» والمنتظر ان تتصدق المتزوجات عليها لفقدانها

عمادها وسوء حالها ولذلك يقال : « يا ارامل يا بنات تصدقوا عالمتزوجات » للشيء يوضع في غير موضعه .

وفي المثل القائل : « لولا الغربله وهزّ المخالي كانت الارمله تستغني زماله » (الزماله عندهم : الفرس . ما يدلّ على اعتبار الارملة في لبنان شحيحة الحال محدودة الموارد محتاجة الى من يمدّها دائماً بالايد والمعونة .

الحماة والكنه

يتكلم اللبنانيون كثيراً عن العداء المستحكم بين الحماة وكنتها ، ويقولون انه عداء تقليدي قلّ ان لا يقع ، وان وقع كان من الصعب علاجه . ولعلّ السبب في ذلك رؤية الحماة سلطانها في المنزل يتضاءل ويحلّ محله سلطان كنتها بما لها من روعة الشباب ونفوذ الكلمة في زوجها واولادهما ، ولذلك قالوا : « ما في كنه بتعبها الحما ، واو كانت نازله من السما » ومنهم من يورد هذا المثل نفسه في القالب التالي : « مكتوب على باب الجنه ما عمرها الحما بتحب الكنه » .

وقد يتوسط المحبون لاصلاح ذات البين بين الحماة وكنتها فاذا لم تنجح وساطتهم لما لاقوه من عناد الحماة اوردوا لها المثل التالي : « قالوا يا حما ما كنت كنه ؟ قالت : كنت ونسيت » .

وان سألوا الحماة عما تشكوه من اغلاط كنتها واخطائها اوردت لهم منها الشيء الكثير . وقد تسمعهم المثل التالي : « عندي كنه ما اكرم شانها بتشيل الطبيخ بكمامها » لاهمالها عمل « الشيّال » الذي لا يستغنى عنه في المطبخ .

وقد يتوسلون لاعادة الصلح بين الحماة والكنة بتذكير الاولى ان كنتها هي مربية اولاد ابنها والساهرة على صحتهم ، فاذا لم تتوفر لها الراحة والعيش الهنيّ فقد يؤدي سوء حالها من حيث لا تريد الى الحاق الاذى باولئك الاولاد وعلى ذلك قالوا : « حبوا كناينكم تعيش بنينكم » .

وكثيراً ما تختلف الحماة والجاره وتتقاطعان . وفي مثل هذه الحال يصح المثل القائل : « الحكي للكنه لتسمع الجاره »

ومن الكنائن من يحسبن تحامل حواتهن عليهن غضباً علوياً فيقلن : « لا حما ولا ضرّه الا سخطه من الله ».

ولجما مع حماته اقوال وحوادث ترددها الالسن ، اشهرها قولهم : «جحا ما فيه لحماته بيقتل مراته » (يضرب لمن يتشفى بايذاء الهين لعجزه عن ايذاء المتكبر المستقوي)

الاخوة في كنف والديهم

كثيراً ما يعيش الاخوة في كنف والديهم حتى لو كبروا وتزوجوا وولد لهم بنون وبنات فان ذلك لا يمنعهم من ان يقيموا جميعاً مع نسائهم واولادهم واخواتهم تحت سقف واحد يأكلون على مائدة واحدة مفاخرين بأنهم«لا يقسمون ما بينهم الا ما حرّمهُ الله» ،والمتعارف ان يتقفي الابناء طريقة والدهم في سياسته وعلاقاته ويقولون :« ما يعقده الاب لا ينقضه الابن — محبة الآباء تتصل بالبنين ».

والاخ يناصر اخاه لانه في عرفهم « جناحه » ، ولكن للاب الاولولية في الحنان والعطف :«من قال خيي مطرح بيي كان كذاب علي» بيد ان الوفاق قد ينقصم حبله في بعض الاسر لدواع مالية لان:« القرش يفرّق الاخ عن اخيه» ولكن الاصحاب لا يلبثون ان يتدخلوا لاصلاح ذات البين فيقولون لهم :« كونوا اخوه وقسموا قسمة الحق — عيشوا اخوه وتعاملوا كالاجانب ».

اما الاخوات فيحاذرن العار خوفاً من ان يجرحن كرامة اخوتهن :«اللي بيعرف خيي يعيّره فيّ ».على انهن يتألمن ان نظرن اخوتهن منحرفين الى تفضيل زوجاتهم عليهن ويقلن:« الاخ اخو مراته والاخت بتحلف وحياته».

توقير الجدود والجدات

ويكبر الاحفاد منذ صغرهم على توقير جدودهم وجداتهم وتهيب مجلسهم متأثرين بما يورد عليهم من مثل هذه الامثال : « وقروا كباركم بيوقركم صغاركم — الكبير بركه — اللي ما عنده كبير يشتري له كبير — اللي ما بيسمع من كبيره يا قلة تدبيره ».

واذا لم يكن للابناء صغار انصرفوا الى تدليل والديهم: «صغار ما عندكم دلّلوا شيوخ بيتكم».

- والشيب دليل النضج والحكمة والوقار: «كلما شابت طابت — الشيبة هيبة». فاذا لم يوقر الشيب نفسه قالوا له: «الشاب عند طلوعه والشيخ عند فروغه — بعد الكبره جبّة حمرا» لان الاحمر عندهم ملبوس الصغار والشبان.

واذا حاول الشيخ التصابي والعودة الى عهد الشباب بالصباغات والالوان قالوا له: «يا طلبة اللي ما بتستجاب يرجعوا الختيارية شباب». وهل يصلح العطار ما افسد الدهرُ ؟.

اما العجائز فيعرفن ان الافضل لهن تجافي مجالس اللهو حيث معارض الشباب والجمال متذكرات المثل القائل: «حط الصبايا في القصر وتفرّج عليهم، وحط العجايز في القبر وسكّر عليهم».

والكبير ينصرف الى الراحة فاذا حاول العودة الى ما يعمله الشبان قالوا له: «بعد ما كبر وشاب ردّوه للكتاب».

ومما يتندرون به الشيوخ قولهم: «عقل الكبير كبير — اكبر منك بيوم اخبر منك بسنه — ما في لحم الا في العتيق — اعرض بشبّ وقاتل بختيار».

وقد يتطاول صغير على كبير فيقولون للمتطاول: «كبر السبع صار مسخره للكلاب!» ويهزؤون على الشيخ هذا التطاول بقولهم: «وعا الكبير بيساع الصغير» واذا بدا من الشيخ شيء من نزوات شبابه قالوا: «من شبّ على شيء شاب عليه» وان كان الشيخ ممن يريدون فرض حرمتهم على الناس بغير وسائلها المألوفة، قالوا له: «مثل شيخ النور كبير عند نفسه صغير عند الناس»، واذا تناهى باحدهم الكبر الى حدّ الخرف قالوا: «الكبر عبر».

وهم يحرّضون الشيخ على تناول المأكولات المقوّية قائلين: «ما بيقوم بالختيار غير ضرسه».

وربما نبغ شاب من اسرة لا حسب لها ولا نسب فاضطر الكبير الى مجاراة الناس في توقيره وتكريمه عملاً بالمثل القايل: «كل صغير انتشى باس الكبير ايده».

العمومة والخؤولة

يوقر اللبنانيون الاعمام والعمّات والاخوال والخالات توقيرهم لآبائهم وأمهاتهم . ومن اقوالهم في العم : « عمك حمّال همك – عمك لا تعمعم عم غيره » . ويقولون عن العمّة : العمّة بتعمّ بتربي مطرح الامّ » وهناك من يرى في الاعمام والعمّات غير هذا الرأي . قيل : سأل احد الاعمام ابن اخيه : « ليش عم تبكي وانا عمك ؟ » اجاب : « كل بكايي بجيبلك عمّي ». وقال آخرون : « العم عما » وقد قدمنا قولهم : البنات من صدور العمّات .

وهكذا نظرهم في الاخوال والخالات . فمنهم من يحبونهم ، لانهم : من ريحة الام» ومنهم من يذكرون عداوات كثيرة وقعت لابناء الاخت مع اخوالهم وخالاتهم . ويتمثل هؤلاء بالقول المشهور : « ابن الاخت عدوّ الخال» ولكن هناك قولاً آخر يعارضه وهو المثل المذكور سابقاً : « الصبي لو بار بيطلع تلتينه خال ».

على ان اللبنانيين اجمالاً معتصمون بالمحبة العائلية ، غيارى على انقاء العلاقات الاهلية ولهم في ذلك امثال منها قولهم : « اهلك ولا تهلك – اللي ما فيه من دمك ما بيعطل همك – الدم ما بيقلب ماء – قرابتك ان لوسك ما بلعك – الف عدو برّا الدار ولا عدو جوّا الدار – يا ليت لي قرابه ولو كان من ترابه » ويشبهون القريب لقريبه بالثوب للجسم يردّ عنه الاذى : « اللي بيقلع ثيابه بيبرد ».

ولاهل الزوجة دالّة خاصة على المنزل الزوجي فيؤذن لهم في اية ساعة بدخوله ، دون تنبيه ولا استئذان : « ان كنت من اهل المرا ادخل بدون مشوره ، وان كنت من اهل الرجال غيّط من شوار الدار » وهذا المثل يذكرنا على الخصوص بعادة قديمة في لبنان ، ما زالت تحترم حتى اليوم في الجبال لا سيما في منطقة الشوف وهي : ان الزائر الغريب لا يدخل بيت مزوره الا بعد ان يقف في الخارج وينادي بصوت ممدود : « يا اصحاب البيت! » فيجاوب

من في الداخل بكلمة: « اهلاً وسهلاً » بيد انه يتربّص تأدباً ولا يدخل الا بعد ان يظهر صاحب البيت ويدعوه بادئاً ملحّاً .

* * *

هذه صورة تمثل الميلة اللبنانية في وضعها الصميم الاصيل دون ما تنميق ولا تزويق، وذلك ليس في العصر الحاضر فحسب، بل منذ العصور التي وضعت فيها هذه الامثال العريقة في القدم، والتي منها تستمدّ صورتنا هذه جُلّ ما لها من بهاء وروعة